بعد مرور شهرين من اندلاع الحرب على غزة كانت هناك رغبة عارمة لدى الجميع بالتحرك مصحوبة بالأمل بأن التحرك الشعبي سيوقف الحرب سريعاً. في تلك الأيام كتبت تدوينة تحث على إعادة النظر -كالعادة- ببعض الأفكار التي تعيق التحرك وكان الأمل بأن تحصل المراجعة السريعة حينئذ، لكن مع مرور الأيام والأشهر حافظ الحراك في الشارع على وتيرة متواضعة نسبة لحجم الأحداث وأحكمت الحكومة قبضتها الأمنية، ثم وصلت التظاهرات ذروتها ونالت حيزاً من الأخبار وتعرضت لهجمة ممنهجة من عدة أطراف في المنطقة قبل التصعيد الإيراني الذي رد على قصف الكيان للقنصلية في سوريا والذي يبدو أنه جعل برمجة سابقة تصطدم مع واقع بعد الطوفان.

هذه ملاحظة شخصية لذا لا أسردها كأنها حقيقة مثبتة وهي أن تلك الضربة تركت أثراً على الشارع الأردني، وكانت للمرة الأولى تشق الآراء بدلاً من أن توحدها أكثر لو صدقت الهتافات والمنشورات الداعمة للمقاومة الفلسطينية، ما حصل بدا وكأنما برمجة عقلية مسبقة تفعلت، فجأة ظهرت الأقاويل ضد إيران وكأن الصواريخ استهدفت الأردن مع أن هدفها كان الكيان، وتجاهل الجميع حقيقة أن الخطر الوحيد عليهم هو من اعتراضها فوق رؤوسهم.

أذكر هذه الملاحظة كي أشير إلى فكرتين مهمتين في طرح هذه المقالة، الأولى هي تصور الحراك عن بعد وما يعكسه من استبدال الصورة بالحقيقة، والثانية هي للإكمال على مطلع المقالة والمقالة القديمة التي ذكرت فيها بعض المقدمات بشكل مختصر، ومنها أثر الربيع العربي وخصوصاً الثورة السورية على الشارع في الأردن.

كي يكتمل التسلسل الزمني سأنبّه القارئ إلى أن الوقت الذي انجلى بين مقالة العمل وبين هذه المقالة امتلأ بمقالات تسهب في مكونات تلك المقالة، ففي الشهر الثامن في رزنامة الطوفان (أي في الشهر السادس من هذه السنة) نشرت مجموعة مقالات تسعى لتفكيك أسوأ الأفكار السائدة وما تتركه من خدران في العقول والأنفس، وفي تلك المقالات تعرضت للكثير من أباطيل الربيع العربي، وما زال هناك المزيد مما يمكن قوله وما يجب قوله اليوم بعد أن ثبتت درجة امتداد تعفنه وأن كل ما حصل من جرائم في غزة لم توقظ هؤلاء كلياً من تعويذته الفتنوية حتى لو بدا منهم القليل من التراجع والمراجعة.

هذه المقالة إذاً لا تأتي مع وهم أنها ستقنع القارئ بالشكل القاطع بسردية ما عن الحرب في سوريا، لأن فعل ذلك يحتاج إلى شيء أشبه بإعادة التأهيل، أو ربما يحتاج البعض إلى المزيد من الصدمات التي توضح بطلان بعض المزاعم وتعاسة بعض المنظرين للربيع.

الجذور المتعفنة

سأذكر الآثار والأعراض للثورة دون ترتيب وفق الأهمية، الفكرة هنا كما في جميع المقالات هي في استكشاف الجوانب المعقدة للوضع المتثاقل. كما يجب التفريق بين نوعين من المخدرات الحراكية، بعضها قديم يسبق الثورات بسنوات، يبدو وكأنه يضرب في أعماق الذهنية العربية والإسلامية، وبعضها يمكن ربطه حصرياً بالثورات، الثاني يرتبط بالظروف المحيطة مثل التقدم التكنولوجي.

لذا نبدأ باقتضاب ببعض الأسباب مثل عمى الأنوان والتنافر الوظيفي ومسألة التكنولوجيا لأنها جميعاً تسبق الربيع وكان بروزها ثماراً لجذور متعفنة موجودة في تربة الوعي. كلها أسباب كتبت عنها سابقاً للمهتم بالتعمق أكثر فيها.

امتداد جذر عمى الأنوان في أفرع الثورات الربيعية والحكومات التطبيعية وتوقعات رد الفعل الطوفانية:

تمثّل عمى الأنوان في الثورات بإيمان بوحدة الظروف، هناك تشويش يحصل عند الناس عند ربط مفهوم الوحدة العربية (أو الطموح بتلك الوحدة) مع مفهوم وحدة الظروف، لذلك بدا في مطلع الربيع أن انتشار الثورات في عدة دول منطقي لأن هذه "الشعوب" يمكن جمعها والتعامل معها كأنها شعب كبير. ما أدعو إليه في كل المقالات هو فك الارتباط بين الحاجة لنفي العنصرية وبين التوحيد المطلق الزائف. لا داعي للكلام وكأن الشعوب تتمايز بدرجات هائلة لكن تجاهل تمايزها ضرب من الأماني الساقطة بأي قراءة واقعية.

لم يمنع ذلك "الشعوبَ" والمنظرين من توحيد النظرة للثورات كأنها رزمة واحدة، وقد نال مني شخصياً في البداية لأن إحدى الثورات المبكرة كانت في مصر واستهدفت حكومة صديقة للكيان وللولايات المتحدة، مما أعطى انطباعاً بأن تلك الثورة محلية، أخطأت لأنني لم أنتبه لفكرة أن صحة ذلك عن الثورة المصرية لا يعني بالضرورة إسقاط العفوية على كل الثورات ومدها على طول الخط الزمني لأيّها.

هذا الخطأ لا يمكن تجاهله في أي محاولة إصلاحية أو ثورية، بالطبع هناك درجة من التزعزع التي قد تعطي المصلح أو الثائر إشارة الانطلاق لكن على المرء قراءة ظروفه المباشرة، لو أخذنا مثالاً بعيداً من الفكر الثوري يمكن الاطلاع على رأي ثوري ضد التقنية.
للأسف يجب الاعتراف أيضاً بأن هذا الوهم نال مني مرة ثانية مع الطوفان وربما من غيري، لأن الحدث على عظمته أوحى بأن الفرصة قد حانت لتحرك مُعتَبر ولإعادة رسم سياسة الدولة تجاه الخطر الوجودي عليها. لا أعني أن الطوفان لم يكن إشارة للانطلاق إلا أنها إشارة جاءت على شعوب متخمة بالخرافات ومهزومة عقلياً ومعنوياً.

لنركز الكلام على سياق هذه السلسلة المتعلقة بالشتات الفلسطيني. كل هذه المسائل تستحق الذكر لأن الربيع العربي رسخ الهزيمة أكثر في عقل المواطن ولم يكن الفلسطيني في الأردن الاستثناء لذلك بل ربما تأثر بطريقة مميزة لأن الأردن هي الدولة الوحيدة التي تحيط بفلسطين والتي لم تهب عليها رياح الثورات. لكن مع عمى الأنوان بات النقاش اليوم كما البارحة يجمع بتخبط بين الدول المحيطة بفلسطين على الرغم من الفروق الشاسعة، لو ركزنا النظر بالمكون الفلسطيني نجد أن الفلسطيني في لبنان تتوفر له فرص لا تتوفر بتاتاً للفلسطيني في الأردن، وكل الحديث عن محاولة خلق تجربة شبيهة يتجاهل تسلسل الأحداث. لاحظ أن القرارات الرئيسية في الدول الأربع لم تكن في يد الفلسطيني في الشتات; قرار الحكومة السورية ولبنان الرافض للتطبيع وقرار الحكومة الأردنية والمصرية التي دشنت موجات التطبيع العربية لم ترتبط بالعلاقة مع المكون الفلسطيني أو مع الفصائل الفلسطينية.

مثلاً إذا أراد أحدهم أن يعزو التطبيع لأيلول الأسود وكأنه المفصل الوحيد يسقط كلامه من عدة أوجه، الزمن أحدها، ثانيها يطل عندما نتذكر أن الحرب الأهلية اللبنانية كانت أشنع على جميع الأطراف، ومع ذلك لم يستنتج حزب الله وغيره من الأحزاب من تلك الحرب أنهم بحاجة لترك القضية الفلسطينية، بل وصل الحزب إلى الاستنتاج المعاكس كلياً وثبت على ذلك منذ نشأته وحتى حربنا هذه. وفي المقارنة بين الحكومة السورية والمصرية نجد مفارقة أكبر، فالحكومة السورية تنازعت مع الفصائل الفلسطينية بينما لم يكن هناك أي نزاع يذكر بين الفصائل الفلسطينية والحكومة المصرية، ومع ذلك لم تستنتج الحكومة السورية أن التطبيع في صالحها بينما استخلصت الحكومة المصرية ذلك دون أي صراع معنا.

امتداد جذر التنافر الوظيفي في فرع عدم التحرك بشكل جدي من أجل شعب آخر ما لم تسمح حكومات ما بذلك:

أما بالنسبة للتنافر الوظيفي فقد برز عندما تصاعدت أعمال العنف في ليبيا، أذكر بوضوح حادثة في أيام الجامعة حين أعلن بعض الطلاب عن إقامة عرض كوميدي. وجاءت بعض التعليقات على صفحة العرض لتتطالب بتأجيله احتراماً للدم الليبي، ما لفتني في وسط التعليقات أن أحدهم استشهد بالقضية الفلسطينية لينكر مطلب التأجيل، وقال أننا نعيش حياتنا بشكل طبيعي على الرغم من فظاعة ما يحصل هناك. لا داعي للرد على هذا التعليق اليوم سوى أن تجاهل القضية عموماً ومأساة غزة خصوصاً هو ما مهّد لهذا الانفجار.

تحدثت عن هذا التنافر في الملحق الأول لسلسلة الطواف في فلك الواقع وكيف يظهر في العلاقة الغريبة مع الولايات المتحدة أيضاً. لم أفكر حينها بتسمية تلك الظاهرة لأنني ركزت على الحادثة بعينها، أما اليوم بعد تكرارها صارت نمطاً يحتاج إلى الدراسة. بعد الطوفان وخصوصاً في الأشهر الأولى كانت هناك نقلة معينة في حياة الناس، لكنها لم تدم، بعد أسابيع عادت الحياة الطبيعية والمنشورات العادية جداً، يمكنني أن أسلك مسلك المثقفين العرب ورجال اليوتيوب في لوم الفرد وكأنه يتفوق على محيطه المادي لكنني لا أرى جدوى من ذلك. بل وقد يصدم كلامي القارئ قليلاً، لا أظن أن العودة إلى الحياة الطبيعية سببها عدم الاكتراث وإنما عدم وضوح السبيل من موقع الفعل والهدف، وهذا لا يعود لقصور عند الأفراد وإنما في أطروحات المفكرين المتخمة بإسقاطات تاريخية في غير محلها وتجاهل نقل التكنولوجيا للصورة دون تقريب الواقع، وبسبب تلك الإسقاطات والشروط التعجيزية وآثار تحاول السلسلة الإحاطة بها لا يملك الفرد سوى تحركات فاترة مثل المقاطعة الاقتصادية وطقوس المشاكهة التي ذكرتها في خاتمة سلسلة الطواف -في السياق الأردني يتمثل هذا باعتبار مظهر التظاهر كافياً بغض النظر عن النتيجة-.

ملاحظة: وهم وحدة الظروف بسبب عمى الأنوان والتنافر الوظيفي يمكن اعتبارها امتدادات لجذر واحد لكن توضيح هذه النقطة يحتاج إلى مقالة متخصصة.

البذور المسمومة

أما بما يخص البذور التي جاء بها الربيع ولم تكن موجودة قبله قد يصعب نوعاً ما التفصيل بين حضورها من الربيع أم من الظروف، لكنها حاضرة وقد زرعت وبدأت تنمو وقد أكل الشعب الفلسطيني مرارة ثمارها الأولى ولا أظن أن الطوفان يمكن فهمه دون فهمها.

ثنائية السلمية والعسكرة

في المقالة المذكورة ذكرت خطأ الصفر السلمي والواحد الدموي وما يعنيه من اعتقاد المؤمن بثورات الربيع بأن التغيير يأتي بانقطاع مفاجئ ينتقل من التحرك السلمي إلى العنف وكأن التنظيمات العسكرية تتدرب بين ليلة وضحاها والسماء تمطر الأسلحة الثقيلة. هذا المنطق البوليني يبدو جذرياً من الناحية النظرية لكن تطبيقه لم يأتِ في محاولة التصعيد وانتظار تلك الأسلحة السحرية، ما حصل هو أن هذه الثنائية صارت عذراً للشارع الأردني وشرطاً تعجيزياً وفراملاً للمخيلة. لأن المواطن بات يظن أن عليه التظاهر سلمياً فإن لم تنجح عليه أن يواجه قوى الأمن بالنار وبما أن ذلك ليس ما يطمح له -ومع أن هذا يتعارض مع الثورية المزعومة- لا داعي للتفكير بأي حل. هنا ترتبط الخيوط بين المقالات ونكتشف أن الحل بمنطق ضبابي وسطهم هو في الهجرة الكاملة أو الخوض في معترك الأحزاب العقيمة.

التجسيم السياسي والإعلامي والحروب بصفتها السينمائية والعقم في الاستنتاجات:

البذرة الثانية هي في تجسيد كل المفاسد على هيئة شخص والسعي لإسقاطه واختصار المطلوب بذلك. هذه البذرة زرعتها الثورة التونسية، حين بدا للجميع بأن فرار الرئيس نهاية سعيدة مباشرة. والآن حان وقت متابعة فيلم الثورة الليبية، ذلك الفيلم كان دموياً وكانت الشخصية الشريرة مناسبة أكثر لحبكة الفيلم، وعندما قُتِلت بمشهد شنيع ارتاح المتابع الربيعي وغيّر القناة. بالنسبة لي شخصياً كان هذا "الفيلم" واقعاً، لذلك لم أكن مرتاحاً عندما رأيت الناس يعيشون حياتهم الطبيعية حولي بينما وقعت كل تلك الفظائع في الفيلم، ومع أنني كنت مع الثورة إلا أن تدخل الناتو جعلني أنفر منها، ولم يفرحني مشهد القتل كما أفرح الكثيرين لأنني كنت أنظر في الوقت نفسه إلى جورج بوش الذي ارتكب كل أنواع الفظاعات بحق الشعب العراقي وهو يعيش سائر حياته بطمأنينة وأمان.

هذا التجسيم انتقل بسلاسة إلى الحرب على غزة عندما صارت التحليلات كلها تنصب حول رئيس وزراء الكيان وكأنه يستفرد بالقرار ويملك القدرات كلها في جيبه، وأن كل الحرب تطول لأنه يتهرب من تهمات الفساد، وكأن المستوطنين أو الجيش يوافقون على مضض. بالكاد تذكر هذه التحليلات اللوبيات أو أصحاب رؤوس الأموال الصهاينة في العالم ونسبة القبول المرتفعة جداً للإجرام، وبالكاد تنبّه المحللون إلى الجوانب التكنولوجية والصناعية للحروب -لم أجد سوى هذه المحاضرة التي تغوص في المسألة بدلاً من التعامل السطحي معها- كل شيء تحول إلى منازلة مع رئيس وزرائهم وبعض السياسيين من "اليمين المتطرف" وكأن هناك يسار متسامح في هذا الكيان.

عودة للثورات والدراما، لم تكن الثورة السورية فيلماً بل كانت أشبه بمسلسل، والنهاية السعيدة للمتمسكين بالربيع طالت في الحرب السورية، طال المسلسل أكثر من اللازم، مرّت سنة وسنتان، واستمرت الحرب، تقدم الثوار ثم تراجعوا ثم تقدموا ثم تراجعوا، ظهرت داعش وخطفت الأضواء حتى انبثق منها عملٌ آخر، اندثرت ودفنت معها أي حديث عن إقامة الخلافة لا يشوبه التعذر والاستدراك. لم تأتِ تلك النهاية حتى اليوم، وهذا بحد ذاته سببَ مشكلة عميقة عند كل من أسس كل وعيه السياسي على الحلم بتلك النهاية.

التجسيم تحول إلى مبدأ، بالنسبة لأثر التجسيم هنا فهو في اقتناع الشارع الأردني بأن الموقف السياسي يمكن أن يكون ملخصاً بإلقاء اللعنات على الشخصية كما تلعن شخصية الشرير في المسلسلات. منذ قيام الثورات وحتى اليوم لم يتشكل أي طرح ثوري أو مراجعة سليمة مع أن الوقت طال بما يكفي ليحصل كل ذلك، لسببٍ ما عندما تقرأ لمنظري الربيع أو لكل أنصاره لا تجد منهجية واضحة أو مبادئ واضحة، بل حتى وقتنا هذا تجد تغريدات حمقاء مثل هذه تؤكد على أن الكُتّاب نفسهم قد يبثون اللقاح المسموم.

هناك لمحة من سخرية القدر بأن هؤلاء يكثرون من تكرار مقولة "المبادئ لا تتجزأ"، وأنا لا أتحدث عن انقلاب أمثال الشنقيطي على هذه المقولة أخيراً دون اعترافٍ بفشله التحليلي والنظري، بل إلى أن هؤلاء لا يملكون أي مبدأ يمكنك التعاطي معه نظرياً. "المبدأ" أو "المبادئ" هي لعن رئيس ما ولعن منا والاه، هذه الكراهية خرجت من دائرة الفعل وصارت نوعاً من الهوية الثورية المصدرة على الإنترنت، لم يكن الأمر كذلك في البداية بالطبع لأن اللعن بدأ من فكرة أن الحكومة السورية تقتل المدنيين بعشوائية إرهابية، وقد تظن أن المبدأ الذي قد نستنتجه هو إما رفض القتل العشوائي الإرهابي أو على الأقل معاقبة أولئك الذين يمارسون القتل العشوائي. لكن هذا لم يكن المبدأ بتاتاً. مثلاً بدا وكأن أنصار الثورة لا يمانعون من استخدام الثوار أسلحة قد تقل بقدراتها التدميرية عن البراميل المتفجرة لكنها لا تقل بعشوائيتها وعدم دقتها، وقد استخدمتها في استهداف المناطق "الخاضعة للنظام" وكأن المدني السوري إذا كان في تلك المنطقة أصبح دمه حلال أو أضراراً جانبية مقبولة. وكذلك تجنبوا إدانة صريحة لمقاطع جز الرؤوس عندما كان المجرم من جماعات غير داعش، ببساطة لم يكن هناك مبدأ ومعيار واضح للأخلاقيات التي يجب على المرء أن يناصر أو يناهض وفقاً لها.

في المسلسل الجانبي لداعش لم يكن المناصر للثورة السورية في الأردن صريحاً بما فيه الكفاية ليعترف بأن هذا التنظيم هو ابن هذه الثورة، كان يلجأ إلى نظريات مؤامرة عن وقوف الحكومة السورية وراء التنظيم لأنه أطلق سراح البعض، دون أن يعترف بما يعنيه ذلك من حماقة الثوار الآخرين الذين شكلوا بيئة تسمح لمثل ذلك التنظيم بالنمو، أو كان يستنجد بحقيقة تنازع داعش مع فصائل أخرى ليتجنب الاعتراف بأن الجماعات الإسلامية هذه أحمق من أن تقود ثورة، وأن الملاحدة الماركسيين والأناركيين قبل قرنٍ كانوا على درجة من الوعي والذكاء تفوق هؤلاء ممن اعتبرهم المناصر للثورة أسود السنة. على أي حال، تطلب فهم خطورة داعش قتلها لطيار أردني، مما يدل على أن الثائر الربيعي في الأردن كان أحمق من إدراك الخطر في دولة مجاورة قبل أن يمس الأذى مباشرة به، ولهذا ليس غريباً اليوم أنه لا يتصرف كما لو أنه أدرك الخطر من الكيان الصهيوني. حتى استشهاد ماهر حويطات في عمليته البطولية صارت هامشاً بسبب سرعة الأحداث والتعامل مع الأخبار الخارجية وكأنها مسلسل لا بد من إكمال حلقاته بدلاً من معاينة محيطنا المباشر ولو قليلاً.

ببساطة لم تتشكل أي مبادئ تذكر لأن التنظير لتلك الثورة لم يحصل في الشوارع الأردنية، كل فكرة كانت تحصل بأثرٍ رجعي ولدواعي الترقيع، بهذا لم ينتج أي مبدأ يذكر، وحتى يومنا هذا لن تجد أي شيء مميز على المستوى النظري، لن تجد أي خلاصةٍ وظفها الثوريون الربيعيون في الأردن عندما استدعى الأمر ذلك، حتى أقبحهم شكلاً وفكراً من أنصار التكفير باتوا أرانباً عندما تعلق الأمر بدولتهم.

انتقالاً للتجسيم الإعلامي، سابقاً عندما كان هؤلاء يمارسون البلطجة التي لا تختلف كثيراً عن بلطجة الصهاينة باستخدام كلمة شبيح كما تستخدم كلمة معادي السامية، مما جعل أي نقدٍ للثورة شبه مستحيل، لم يكن هناك داعي لأن يراجعوا أنفسهم كثيراً وتمكنوا من عزل

أنفسهم عن أي رأي مخالف. لكن كيف لكل هذه التناقضات وكيف لهذا الخواء بأن يستمر في العقول لولا ضخ وتوجيه؟ الإجابة بالطبع هي في المحطات الإعلامية، والإشاعات الاستخباراتية، وتنظير المنظرين.

بالنسبة للاستخبارات فقد كانت تعمل بشكل متناسق مع سياسة الحكومة الأردنية التي ترغب بإسقاط الحكومة السورية، والمنظرون كانوا يتفاوتون في مواقفهم، بعضهم مثل ناهض حتر لم ينجر وراء الضخ المعادي للحكومة السورية بينما عمل آخرون بشكل مباشر في تلك المحطات أو كان متأثراً جداً بها مما جعله طوعياً يعمل على بث أفكارها، وبما أن هذه الأفكار لم تتعارض مع الرواية الحكومية الأردنية، كان من أسهل الأشياء على المنظر أن يخوض ويتعمق فيها، وينال الشهرة في معركة آمنة ومزيفة، مما يسحب من حاجته لتفريغ ثوريته في دولته أو شارعه، فهو وكل من أنصت ومن كرر تحليلاته حصلوا في الوقت ذاته على النشوة من معارضة السلطة وكأنهم ثوار كما حصلوا على رضا السلطة المحلية بعلاقة غض نظر متبادلة، الحكومة تغض النظر عن "ثورية" هؤلاء وهم يغضون النظر عن أي ثورية محلية.

ما هو موقع "التجسيم الإعلامي" في كل هذا؟ التجسيم كان يحصل عندما يتعرض أنصار الثورة السورية لأي نقد من خارج فقاعتهم، وعندما أشار النقد إلى الأكاذيب التي تنشرها المحطات، وقع التجسيم مع ردودهم التي تنص على أنهم لا يكترثون بالمحطات، أي عندما يظن الفرد بأن النقد للقناة هو نقد لشخص متجسد وليس نقداً نظرياً لمجموعة من الأفكار والارتباطات والرموز. لذا يظن الفرد بأنه إذا شتم المحطة مرةً فقد أثبت حريته الفكرية دون أن يدرك أن شتم المحطات لا يعني شيئاً إذا تشبّع الفرد بالسردية التي تبثها تلك المحطات.

هذا التجسيم الإعلامي انتقل بسلاسة أيضاً إلى عالم ما بعد الطوفان، في هذا العالم ما زال بعضهم يتمسكون بسرديات تلك المحطات بشكل شبه كامل لكنهم يشتمون المحطات بالوقت ذاته. هذا هو المبدأ الثوري الوحيد الذي استخلصه المواطن في الأردن، أن تلعن كل شيء وتعتبر ذلك كافياً دون إنصاف أو تفكير بتعقيد الأمور وبانعكاسها على واقع دولته. هذه اللعنات كانت تشمل كل شيء حتى نالت من القضية الفلسطينية كما سنوضح بعد قليل.

قبل الانتقال لنختم جانب الفهم السينمائي للحروب، هذا الفهم الذي صوّر الحروب كأنها تتبع حبكة مدروسة انتقل بشكل عسير على عكس التجسيم السياسي والإعلامي. أنصار الثورة السورية في الأردن لم يجدوا اللقطة التي يحلمون بها في الحرب السورية، وهذا لم يدفعهم إلى أي مراجعة صادقة لما حصل، بل بدا منهم إصرار غريب على التصديق بكل المعطيات التي أفضت إلى الدمار والعدم. مثلاً عندما تقاربت حماس مع الحكومة السورية نقم هؤلاء على حماس أو باتوا يعذرونها بأعذار غريبة تقطع التاريخ وتجعله يبدأ مع الثورات. هذه الأعذار كانت تتضارب بشكل مباشر مع أحد أهم العناصر في السردية التي انتقصت من موقع الحكومة السورية في محور المقاومة، أي أنها لم تتنبه إلى أن عودة العلاقات بين حماس والحكومة السورية لا تفسرها نظرية "المسرحية". وعندما تحسنت العلاقة بين الحكومة الأردنية والسورية بدأ الفتور في "ثوريتهم"، لم تعد المعركة آمنة بما فيه الكفاية.

بمعنى آخر ما حصل هو أشبه بالانتظار لموسم الثورة السورية الجديد لاحقاً، دون فهم الحبكة المعقدة وعلاقات الشخصيات التي وصلت إليها الأحداث في نهاية الموسم السابق، وأثناء الانتظار الحَذِر أو ربما بعد ترك المسلسل كلياً كما تركوا الفيلم الليبي وغيره، هرعوا إلى صالة تعرض فيلم الحرب على غزة. ما يهمنا هو أن عدم فهم الحبكة في الموسم الأول جعلهم يتساخفون في التعاطي مع بعض أحداث الحرب على غزة، مثلاً عندما انخرط حزب الله مباشرة في الحرب لإسناد غزة لم يراجع هؤلاء أنفسهم وما فهموه من الموسم الأول بل جاء الإصرار على نفس الاستنتاجات التي أخذ الواقع يبطلها شيئاً فشيئاً، وعندما وصلت الذروة واكتشفوا أن السيد الشهيد حسن نصر الله كان مستعداً للتضحية بحياته من أجل إسناد غزة، وشاهدوا ما سبق هذا الحدث الجلل من هجمات إرهابية يجب أن تدق ناقوس الخطر لديهم، وردود أفعال لا أخلاقية تسربت من مسلسل الثورة السورية تنفي كل ما حبكوه حول أحقية الثورة وأخلاقيتها، هذا كله جعلهم يتخبطون في محاولة لملمة أنصاف الحلول والمواقف الرمادية بعد أن زعموا طوال عام أن الحق واضح وأنهم يتوقون لنصرة غزة.

كيف ينطبق كل هذا على ما حصل بعد الطوفان؟ أظن أن امتداد تلك البذور واضح في عدة ثمار، مثلاً بعد متابعة سنة كاملة من جرائم الحرب بحق غزة ما زال الربيعي يعطّل آخر المستجدات ويستدعي موسم الثورة السورية كي يخفف من فظاعة الحرب على غزة باللحظة التي يوجه الكيان إرهابه خارج فلسطين، أي أن هؤلاء قد طبعوا الإرهاب على مستويات مختلفة، منهم من صار يناصر الإرهاب الصهيوني جهاراً ومنهم من أنكر ذلك لكنه لا يجد مشكلة مع أنصار الإرهاب بل آمن أن عليه واجب أخلاقي بالدفاع عن الثورة بزعم أن أولئك الفرحين "لا يمثلون" الثورة. هذا التضارب لا تفسره تسلسل الأحداث الواقعية، مثلاً لا تضارب بين احتفال الثوار السوريين مع الكيان ومحاربتهم لأعداء الكيان، لكن الربيعي في الأردن يعتبرها غليتش على الشاشة كي يستمر بتجاهل العداء بين المحور والكيان.

السطو على شرعية القضية الفلسطينية

هناك مقولة انتشرت قبل الطوفان وترددت بالعادة مع الشعار الفارغ عن المبادئ التي لا تتجزأ، "الدم الفلسطيني ليس أغلى من الدم السوري". هذا الرد القشي كان يأتي دوماً عند التذكير بالقضية الفلسطينية وأثر اصطفاف الثورة لقتل أي نقاش صريح حول طبيعة هذا

الاصطفاف، وهنا لا بد من الإشارة إلى أن حركة حماس بحيادها ساهمت قليلاً في حمل شرعية المقاومة خارجاً. لا يمكن الحكم على هذا الخيار بسهولة ويمكن ملاحظة ذلك بوضوح أكثر بعد عودة العلاقات، لذا لن أتحدث عنه هنا لكن ذكره واجب لأن تجاهله كلياً ينتقص من التسلسل. هذا الذكر واجب أيضاً حتى لا أبالغ في تصوير أنصار الثورة السورية في الأردن كأنهم فقدوا عقولهم، على الأقل في بداية الثورة كانت هناك مؤشرات عدة تصب في أحقيتها.

ميزان الدم لم يكن في معزل عن مجموعة صياغات شبيهة كان تغرد بها نفس الجوقة، القضية الفلسطينية لم تعد مركزية في نظرهم وصار كل واحد منهم يبحث عن صياغته الخاصة ليقول ذلك. طغا الميزان الدموي وبات التعبير الأكثر شهرة والأقرب روحياً لثورة أنجبت داعش وأخواتها. هذا المكيال تجاهل أي تذكير بخطورة الكيان وبمركزية خطورته وبأن الخطورة شاملة، ولكن بما أن الحق واضح في القضية الفلسطينية لم يكفي هؤلاء محاولة حرف الأبصار، لأن حماس لم تمنح الشرعية للثوار بوقفة عسكرية صريحة معهم وإنما وقفت على الحياد نوعاً ما، مما اضطر أنصار الثورة إلى محاولة تحطيم بوصلة القضية كلياً.

لو راجعنا ملف التحقيق في عملية السطو هذه سنجد أن الشركاء في الجريمة يختلفون بتياراتهم، مثلاً لاحظ أن الحسابات العنصرية التي ذكرناها في الجزء السابق والتي أعلنت منذ بدء الحرب على غزة بدء جولة من الشماتة والحقارة والعنصرية في التعامل مع المكون الفلسطيني في الأردن والشعب الفلسطيني ككل، لاحظ أنها كانت تستخدم نفس المقولة كي توحي بأنها تتخذ موقفاً أخلاقياً. هذا الموقف الأخلاقي الذي يجعلهم يبررون وقفات مع الكيان على الرغم من إرهابه والسلام معه وعدم الاكتراث بتاتاً بالدم الفلسطيني.

التيار الإخواني أيضاً اعتبر أن الثورة ثورته بصفتها الإسلامية، وكان هؤلاء يكررون نفس الكلمات وها هم اليوم يحاولون الظهور بمظهر العقلاء عند الترفع عن أقاربهم فكرياً من السلفية الجهادية، لكن حتى في هذه المحاولات لا تخلو أطروحاتهم من احتقار الفلسطيني والمحور، وتشبيه العلاقة بالغارق المضطر للتمسك بقشة، ولا أدري من أين تأتي هذه الفوقية في عالم انسحقت فيه السلفية ولم يعد للإخوان وشيوخ السعودية سوى هذه المحاولة الأخيرة لتغيير العلامة التجارية بسرقة الشرعية من حماس، بعد أن قضوا كل فترة الربيع بمحاولة تحطيمها وذم حماس. ناهيك عن تجهيل متابعيهم عن العلاقة بين القضية الفلسطينية والثورة الإسلامية الإيرانية.

الأغلبية ممن كانوا يستخدمون موازين الدم بالطبع لم يفعلوا ذلك من عنصرية وحزبية، لكنهم تشاركوا في تكرار نفس الأفكار لعدة أسباب، يمكنك مراجعة المنطلقات الأربع المذكورة في الملحق الثاني من سلسلة الطواف حول الواقع لفهم بعض الأسباب، أما هنا علينا أن نضيف إليها الضخ الإعلامي والجانب الاجتماعي. لاحظ مثلاً أن ناهض حتر والذي يتفاخر به العنصريون لم يتخذ موقفاً ضد الحكومة السورية، ولكنه هو وغيره كانوا محط "كنسلة" اجتماعية بسبب "تشبيحهم"، وكما ذكرنا في المقالة، ما حصل هو أن الكلمة تضخمت ونالت مكانة كلمة معاداة السامية أو النازية في الفكر الغربي. هذه المكانة تعني أن مجرد الاشتباه يؤدي إلى إلغاء الشخصية ومعاداتها، أعيد ذكر هذه المعلومة لارتباطها بسرقة الشرعية عبر الطعن بالمحور الذي وقف في صف القضية ودفع ثمناً باهظاً، كما يمكن رسم خط لمقالة التصحر السياسي لأبيّن أن شيئاً من النفور من المثقفين ومعاداة الفكر نتجا من هذه الوصمة.

هذا الكلام سهل الفهم على من يقدر حمل الأفكار خارج نافذة أوفيرتون ولا يؤسس مواقفه على الموضة لكن المقالة ليست فقط لهؤلاء، قد يقول أحدهم ما المشكلة في هذه الوصمة؟ أي "شبيح" يقبل تصرفات لا أخلاقية ولا يجب التعاطي معه، وهو يستحق النبذ، فهو يرضى على الأقل أو يفرح على الأكثر بجرائم الحرب. لماذا إذاً علينا أن نستمع له ولحججه المبررة لتلك الجرائم؟ لفهم الفخ في هذا السؤال يمكن الإشارة إلى الأسئلة الشبيهة التي أخذ يكررها الصهاينة بعد عملية الطوفان علي الاستعانة بمقالتي هذه عن الموضوع. باختصار، الهدف من رزم الجرائم الحربية أو الإرهاب هو القفز عن مقدمات واعتبارها مسلّمات متفق عليها، وهذا ليس صحيحاً في كلتا الحالتين، معظم المتهمين بالتشبيح مثلاً ينكرون وقوع بعض الجرائم المنسوبة للحكومة، بالطبع من الضروري الحديث عن كل الجرائم الحربية ومعاقبة المجرمين لكن ذلك موضوع يختلف عن موضوع التسليم بأن "الشبيح" لا يجد مشكلة في هذه الجرائم وبدء الحديث من تلك النقطة.

المشكلة الأعظم هي أن "التشبيح" صار تهمة تشمل حزمة كاملة، لا أنكر أن هناك شبيحة يؤمنون بأن تلك الجرائم قد وقعت وأن الحكومة هي الجاني وأنها جرائم مبررة، لكن المشكلة الأعظم في المنطق الربيعي أنه يجمع أولئك المتفاخرين بالجرائم مع اللا أدريين ومع المنكرين لوقوعها أو المختلفين في نسبة بعض الجرائم، ولا يتوقف التصابي في تصنيف المواقف بل يمتد حتى يصير الشخص الذي يوالي حزب الله أو يرى منطقاً في دخول إيران هو "شبيح" أيضاً.

بدلاً من الخوض بالجرائم ودون الحاجة لإقامة محكمة عدل دولية في المقالة علينا أن نوضح الخطأ المنطقي المركزي في عقلية الرزم، لو سلّمنا بأن الحرب السورية وقعت بين حكومة وثوار، وأن الحكومة وكل من معها في جمعية أخلاقية تتداول الذنب، فهذا يعني بالضرورة أن الثوار جميعاً يحملون الذنب لجرائم أي فصيلٍ منهم. وهذا ليس مقبولاً بالنسبة لهم لأنه يتعارض مع محاولة إخراج داعش والأكراد والقوات الأمريكية والتركية من دائرة الثوار، ولكن عند طرح هذه الفكرة نكتشف من بعض الردود أن الثورة السورية لم تعد في نظر هؤلاء حقيقة معقدة مليئة بالحقائق المتشعبة والأحلاف المتقلبة، هي قضية واضحة وضوح القضية الفلسطينية وأي رفضٍ لذلك الوضوح يضعك في زمرة "الشبيحة".

هنا أخيراً نجد تجريداً للثورة حتى صارت أشبه بمحض صورة للثورة، وهذا الأثر قد يكون المولد لذاك التيار المبهم الذي ذكرته في عدة مواضع، لأن الوقوف مع الثورة لا يرتبط بمبادئ أو حتى بتجسيم، معظم أنصارها في الأردن لا يميزون الفصائل ولا يعلمون أصلاً من بقي منها في الساحة، وإذا وصل أحدهم إلى هذه النقطة أغلب الظن أنه سيفتح تبويباً آخر على المتصفح ليبحث في الأمر كي ينفي التهمة. على عكس أي شخصٍ يقف مع المقاومة الفلسطينية مثلاً أو مع المحور جزئياً أو كلياً، بالكاد يذكر المناصر للثورة السورية فصيله الذي يحلم بانتصاره، وبالكاد يذكر النهاية السعيدة أو يتحدث عن أي شيء سوى حلمه بتكرار نهاية الثورة الليبية كي يتمكن من تغيير القناة أخيراً. لهذا يستطيع أبناء التيار المبهم المراوغة أحياناً وكذلك يمكنهم خداع أنفسهم باعتبارهم على هضبة أخلاقية من شعارات مبهمة.

المسألة تطول وتطول ولا أزعم بأن بعض ما طرحته يمثل ضربات قاضية لما يزعمه هؤلاء، هناك بعض الردود الممكنة -لا أدري إذا كانت تخطر على بالهم أصلاً- لكن المهم هو الإشارة العابرة في سياقنا لنوضح أن هذه هي عملية السطو الأساسية على جوهر القضية الفلسطينية، على الجوانب الوجودية والأخلاقية، عملية السطو لا تقف إلى هذا الحد بل تشمل تفاصيل أدق وتتطلب تحطيم أيقونات فلسطينية كي تنجح بعض خطوات السطو التي تطلبت انتحال الهوية.

سلب الشرعية الفلسطينية أو السطو عليها تطلب منهم تلميع صور الكيان، وكان السلب يحصل بشكل مباشر عند تلاقي متغيرين، المتغير الأول عندما تصرّح شخصية فلسطينية بمدح أي طرفٍ من محور المقاومة، لأن ذلك يعني إعادة جزء من الشرعية الأخلاقية للمحور، ولمنع تحقيق ذلك وجب الطعن في الشخصية، المتغير الثاني هو أن الشخصية على الأغلب عُرفت -كعادة هذا الشعب- لأنها تعرضت لظلمٍ أو قاومته. هناك طعنات بأشكال مختلفة لن أخوض فيها، أذكر فقط أنها دائرية بمنطقها، وأنها كلها تصب في مصلحة تلميع الكيان.

في سياقنا وجب ذكر كل ما سبق لكن لحساسية الموضوع الذي وصفته بحقل ألغام مسبقاً، دعني ألخّص كيف حاول هؤلاء السطو على الشرعية التي تمنحها القضية الفلسطينية. الحق والباطل واضح في القضية الفلسطينية وضوح الشمس، لذلك يسعى أي عاقل في المنطقة للاستفادة من تلك الشرعية، ولكن ماذا لو تعارض مشروعه مع مسار التحرير الفلسطيني؟ الخطوة العقلانية هي بالطعن بالقضية بطريقة أو بأخرى، هذا الطعن جاء بصياغات مختلفة لم تعبّر بصراحة عن هذه النقلة، هذه الصياغات المتفاوتة تجتمع لتقول شيئاً واحداً: القضية الفلسطينية ليست قضيةً مركزية. وبما أن الطوفان أثبت مركزية القضية، أو على أقل تقدير لنستخدم تعبير العدو المركزي، فهذا يعني تفنيد كل تلك الصياغات. ولكنها صياغات بظاهرها أخلاقية، مثل المساواة بين الدماء، لذا يصعب على القائل بها رؤية أنها دُحِضت بالواقع. الأمر كما لو أن حاسة ما تعطلت وجعلته لا يدرك بأن الوحدة ضد عدو مركزي تعني بالضرورة أن الدماء متساوية لا أن الدماء الفلسطينية أغلى.

يمكن رؤية أثر كل هذا على السرديات التي يكتبها أنصار الثورة، مثلاً يبدو أن بعضهم لا يقدرون على تفسير تحركات المحور دون افتراض نوايا سيئة على مستوى معين، ويبدو أنهم لا يقدرون على الاعتراف بأي نوع من الإنجازات، خذ مثال وصف "حرب العواميد" على هجمات حزب الله في الأيام الأولى وثم عندما اتضح بطلان التهمة انتقل هؤلاء إلى مقالات عن أن الإسناد انقلب وصار سلبياً، وهذه المبالغة ليست معقولة سوى في عقولٍ حانقة، مؤخراً اضطرت هذه الأصوات لأن تسكت بعد أن أرهقت دماء لبنانية وتعرض الحزب لأعنف الضربات، وأثناء ذلك ظهر أنهم أدركوا الحقيقة لكنهم سرعان ما انقلبوا على أعقابهم عند الهدنة، مثبتين بذلك أن تحليلاتهم لا يمكن أخذها بجدية وأن السردية المسمومة التي يبثونها لن تؤثر فقط على المحور بل على أي شخص مع المقاومة الفلسطينية لأنه سيغرق في العدمية والتسويف.

الفرق في وجهة النظر بين الأردني والفلسطيني

والآن بعد هذا السجال لا بد وأن نوضح بشكل مباشر أكثر كيف أثرت عملية السطو على الشارع الأردني في سياق الحرب على غزة. بالنسبة للأردني لا تملك القضية الفلسطينية مركزيةً بالأصل، لذلك عندما شبّت الحرب في سوريا أخذ يتعاطى مع الحربين كأنهما سواسية وبدا له أن الموقف الأخلاقي الصحيح هو في الوقوف على مبدأ موحد. لسببٍ ما لم يحاول أخذ موقف مركب، واكتفى بتقطيع الوقائع كي تنطبق الحربان. أمامه حرب أهلية وحرب تحرير، الجانب الأخلاقي واضح في حرب التحرير لذا من الأسهل أخذ النموذج التحريري وإسقاطه على الحرب الأهلية. هذا الإقحام منطقي من المسرب المقابل، لأن إسقاط فكرة الحرب الأهلية على حرب تحرير لا معنى له. لهذا يجب على المؤمن بتوحيد المقامات الاعتراضُ على أي محاولة توضح الفروق، مصطلح الحرب الأهلية غير مقبول لأنه مباشرة ينفي صفة التحرير عنها.

عليه أيضاً أن يوحّد المصطلحات، من الضروري استخدام مصطلح "الشعب السوري"، لأن التخصيص بالفصائل مثلاً قد يضفي على الجانب الآخر صفة "السورية" مما يخرج الحرب مباشرة من قالب الاحتلال. كذلك من أجل تثبيت صفة الاحتلال يجب التركيز على العناصر الخارجية، مما يعني تركيزاً مفرطاً على إيران وحزب الله وروسيا، لأنه لو تعاطى مع حقيقة أن الأطراف الثلاثة جاءت بطلب وموافقة من جانب سوري فهي تخرج أيضاً من قالب الاحتلال.

قِس على ما سبق كل محاولات التشبيه، ذكرت المحاولات المنطقية لكن هناك محاولات أخرى سفيهة تأخذ أقل قاسم ظاهري مشترك وتضخمه، مثلاً في التركيز المفرط على الدور الإيراني يحاول البعض تصوير التدخل وكأنه احتلال، وبما أن الحقيقة بعيدة جداً عن ذلك يضطر إما إلى المبالغة بالدور الإيراني أو التقليل من وحشية العلاقة بين الكيان الصهيوني والشعب الفلسطيني، أو إلى استغلال دور فتح الأوسلوية لتشبيهها بالحكومة السورية وكأن فتح هي من جلبت الكيان الصهيوني قبل قرن.

بالنسبة للفلسطيني تقفز كل هذه الخطوات فوق التعاطي المتساوي مع الحروب لأن الأمر يمس به شخصياً، بمعنى أن محاولات إقحام حربٍ أهلية في قالب التحرير لا يحصل لأن الفلسطيني يرى حروباً تبعد عن "عنصره" وإنما بقفزة تجعله يخرج من جلده كفلسطيني، هذا الفرق الذي يبدو بسيطاً في المنطلق يأتي دوره في التباعد مع الزمن ومع عالم ما بعد الطوفان، لأن الفلسطيني في الأردن لا يستطيع أن يرى ما يحصل في غزة كما يراها أي عنصرٍ آخر. كما أن التبعات التي أعادت مركزية القضية إلى الواجهة بل وجعلت المركزية تفوق الجغرافيا وتصل إلى مركزية أخلاقية حول العالم دون مبالغة، هذه التبعات صارت تمس بالفلسطيني أينما كان وجعلت الهروب من جلدته شبه مستحيل، مع العلم بأنني عندما أقول أنه يتنصل من دوره لا أعني أنه يفعل ذلك خبثاً وإنما سذاجة كي يشارك بعملية السطو ويلعب دور الموظف الذي يعطي المفاتيح للصوص الشرعية.

وإذا ظن أحدهم أنني عندما أوضح هذه الفروق أحاول الإساءة للعنصر الأردني فهو لم يفهم أي شيء مما أقول وقد لا يفهم أي شيء في هذه السلسلة. الإساءة هنا هي للمكون الفلسطيني لا للأردني بالدرجة الأولى، لأن الأردني -وفق رؤيتي التي لا تخلط بين حلم الوحدة والواقع المتشعب- ينظر إلى دولتين لا يرتبط بهما شخصياً، بينما يرتبط الفلسطيني بفلسطين شاء أم أبى، لذلك عندما يتنكر الفلسطيني لقضيته أو ينتقص منها فهو يحمل ذنباً مزدوجاً، الطبقة الأولى من التنكر واضحة بقبحها حتى لو كانت النية حسنة، الطبقة الثانية هي بتطبيع الكيان عبر الاصطفاف معه خارج حدود فلسطين، محوّلاً نفسه إلى عملة رمزية بيد من يمقتون قضيته.

توضيح الفروق مهمة لعدة أسباب عدا السعي الوصفي لتحليل الأحداث، هذه الفروق في المنطلقات تعني أن الانطباق ليس كاملاً، لفهم ذلك تخيّل خطوطاً تمتد بفارق زاوية بسيط جداً، من البداية وحتى طولٍ معين قد يبدو الخطان خطاً واحداً لكنهما يفترقان لاحقاً، نحن الآن في مطلع افتراقهما، مما يعني أن الوعي الذاتي للمكونين سيتضح أكثر عند الطرفين ومن السهل الاستدلال عليه بمثل هذه المقالة وبما يقابلها من محاولات من التيار الوطني والعنصري الذي ذكرتهما في المقالة السابقة، فهم أيضاً باتوا يعبرون عن رغبة بالتمايز.

سبب آخر هو لتنبيه العنصر الفلسطيني بأن دخول العنصر الرابع إلى المعادلة، وهو العنصر اللبناني، بات يتقارب كثيراً من العنصر الفلسطيني، هذه المقالة مكتوبة بعد أن شن الكيان حربه على لبنان، وبعد سنة من فتح حزب الله جبهة الإسناد لغزة، بالنسبة للفلسطيني لقد اختلط دماء شعبه مع دماء شعب لبنان، من أصغر الأطفال إلى الشخصيات الأسطورية، روابط الدم هذه لا يتجاهلها سوى المتنكر كلياً لدمه والمتمسك بأوهام تتعارض مع الواقع. كما أن موقف الحكومة الأردنية المختلف جذرياً عن موقف حزب الله يؤدي إلى اصطدام مباشرٍ بين العنصر اللبناني والأردني، والدلائل على مواقع التواصل لا تعد ولا تحصى، حتى لو اعتبرنا أنها لا تعكس الواقع، ومع أن هذا الاعتبار متوهم إلى حد كبير، فهي على الأقل ظاهرة في مكان ما.

بالطبع هذا التصادم لا يشمل الجميع بالضرورة، كما وضحت في مقالة سابقة، الحكومة الأردنية في سعيها العجيب وراء الحفظ على أمنها مع كيان متوحش قد أسقطت نفسها في تناقض صارخ، هذا التناقض لا يخفى على الشعب الأردني لكن مجدداً أكرر وجهة نظري القائلة بأن الواقع والروابط الواقعية لا يجوز تجاهلها بتاتاً، الشعب الأردني مهما اعترض على حكومته فهو بالطبع قريب لها بشكلٍ ما، وفي مرحلة حرجة كهذه ومع انتشار الإساءات بين كل الشعوب، سيتعرض الشعب الأردني للإساءة بسبب موقف الحكومة، وحتى لو اعترض عليها قد تتجاوز المشاكل عتبة معينة مما يجعل حتى أعتى المعارضين يتعصبون للحكومة. لهذا أحاول جاهداً لتقريب وجهات النظر كلها عبر محاولة لإعطاء الكل حقه، وأحاول تقريبها صعوداً من حقيقتها لا هبوطاً من الأوهام.

اكتشاف النار واختراع العجلات

هذه المقالة لم تكن للحسم بسردية الحكومة وإنما لتصوير أثر الثورة السورية على الوعي في الأردن، وكيف تشكل هذا الوعي بهيئة تمنع التحرك النافع في هذا اليوم. بدايةً من منطق الصفر السلمي والواحد الدموي، هناك خوفٌ مبرر قليلاً من التصعيد الحراكي نظراً لفظاعة الأحداث في سوريا، لكنه ليس مبرراً كلياً لأن كل دولة تمر في مراحل مختلفة، كما أن التصعيد الحراكي في تونس لم يؤدي إلى دموية أيٍ من التصعيدات في دولٍ مختلفة. لا يجب أن يبرر المواطن الأردني خوفه من التصعيد بحرصه على الأمن، لأن التصعيد السلمي ممكن وهناك أمثلة في شتى دول العالم تثبت ذلك. بالإضافة لهذا وكما جاء في المقالة المذكورة، الحرص على الأمن في هذه الحالة يتطلب بمفارقة استثنائية التصعيد داخلياً من أجل درء خطرٍ محدق خارج الأسوار.

ثانياً التجسيم السياسي، تعطل الفكر الإصلاحي بسبب التركيز على الرموز بدلاً من البنى، مثلاً إضراب عام 2018 ركّز على قانون معين وكان إسقاطه وتغيير الحكومة كافياً، ولم يتم البناء عليه بأي شكل. لا أختزل سبب ضعف الحراك بهذا فقط لكنه من أحد أهم

الأسباب في نظري. هذا التجسيم سطّح من استيعاب الأحداث الجارية، من اختزال المحور في القيادات بدلاً من استيعاب الفكر والأحداث التي بلورت المحور، إلى تسطيح الكيان في بعض الأحيان، وصولاً لتصوّر المشكلة في الأردن وكأنها في أعلى الهرم فحسب.

ثالثاً التجسيم الإعلامي، لم تكن هناك أي نظرة نقدية لدور إعلام الجزيرة في تأجيج الثورات. لقد تبين منذ زمن أن الحكومة القطرية دعمت الثورات بشكل مباشر وضخم، ما يعني بالضرورة أن الأذرع الإعلامية والثقافية كانت تعمل على دفع الناس إلى سردية معينة، أي أن المواطن لم يستنتج من ذلك احتمالية تلاعب هذا الإعلام أو زمرة المثقفين بالوعي. وكان يظن أن أي نقدٍ له هو بسبب "التشبيح"، ثم صار يظن أنه إذا شتم الجزيرة فهو قد أبطل تعويذتها وتحرر من كل ما دسته في أخبارها.

رابعاً، التعامل مع الحروب والأحداث الكبرى وكأنها مسلسلات وأفلام، عقلية التفرج جعلت المواطن في الأردن يذهب إلى تحليلات من أحمق ما يمكن مثل تصوير صدامات دامية وكأنها مسرحيات، أو يخفي رغبته بالأكشن وراء غطاء طلب الردع بسرعة، وكذلك جعلته يلتهم المقاطع التي تبثها الفصائل الفلسطينية وكأنها مقاطع تشويقية فقط لا غير. وربما فهمت الحكومة هذه العقلية واستطاعت إرضاءها بأفلام الإنزال.

لم يستشعر المواطن خطورة تنظيم داعش أثناء نحره وذبحه في دولٍ مجاورة وانتظر حتى شاهد المقطع المؤلم لإعدام معاذ كساسبة، واليوم كذلك لا يستشعر خطورة إرهاب الكيان في غزة أو الضفة أو لبنان. قد يشير البعض إلى أن هناك من ينشر عن الخطورة لكن النشر شيء واستشعار الخطورة حقاً شيء آخر. والأخطر من كل هذا هو أنه لم يعد قادراً على استشعار الخطورة حتى عندما يتحطم الجدار الرابع وتسقط الصواريخ فوق رؤوس المواطنين. إذ ما زال يفصل بين أمنه وضرورة الضغط على الحكومة.

كما تتجسد عقلية المتفرج بعد تحويل الحرب السورية إلى حرب كاريكاتيرية في خسارة حس إدراك معنى الكثير من الأحداث العسكرية، وهذا يعني سوء تقدير مجحف وخطير يباعد بين التفرج والحقيقة أكثر فأكثر، ويفرز تحليلات معتوهة عن قدرات الأطراف المعنية، وكذلك يجعله يطالب بتحركات معينة وكأن المحور عليه واجب إثبات نفسه لهذا المواطن.

خامساً، لأسباب لا يمكن حصرها وبأعراض لا يمكن تلخيصها، لقد طعنت السردية للثوار السوريين في القضية الفلسطينية وطبّعت الاصطفاف مع الكيان خارج حدود فلسطين، وهذا كان له أثر كبير على الوعي للمواطن، وقد تشكلت تقليد طوال فترة الربيع يتمثل بالانتقاص من أركان القضية ومن رموزها قرباناً للربيع، هذا بالإضافة لليأس بعد فشل الثورات جعل موجة التطبيع العربية أسهل من اللازم، إذ لم يتنبه الفلسطيني خصوصاً للخطورة وهو يمتص اليأس من فشل الربيع العربي ويلقيه على القضية الفلسطينية. بعد الطوفان لم يعد هناك الكثير من الحواجز بين إدراك المواطن اصطفاف الثوار، بغض النظر عن زمن هذا الاصطفاف أي بغض النظر عما إذا كان منذ مطلع الثورة أو جاء متأخراً، إلا أن السنوات التي قضاها الفلسطيني في التنكر لقضيته بالصياغات المختلفة وضعته الآن في موقف محرج، مما أخّر من رؤيته لبعض الحقائق ولا يزال التأجيل والتلكؤ حاصلاً لأن الكثير من الأفكار بنيت على تصورات ابتعدت عن الحقيقة قبل الطوفان.

هذا التنكر فتح الباب للشعوب العربية بإهانة الرموز الفلسطينية وبتآمر مع بعض الفلسطينين الذين سلموا المفاتيح لهذا الباب. وبما أن التقليل من قيمة القضية ومن أهميتها يترك أثراً في القلوب لا يعقل أن نرى التعاجز في إسناد غزة وإنقاذها بمعزل عن هذا التقليل. آخر صورة لهذا التقليل يتمثل بفلسطيني يأتي بعد سنة كاملة من إبادة لشعبه ليدافع عن ثوار يفرحون مع فرح من قتلهم ونكّل بهم، ويهذي ويظن أنه بذلك يقف على تلة أخلاقية.

على الجهة المقابلة كان أثر الثورة على أولئك الذين اصطفوا بدرجة أو بأخرى مع المحور يتمثل بالتالي، أولاً نشير إلى مقالة التصحّر السياسي ونشير إلى نفور الناس من أي مثقف جاهر بذلك الاصطفاف. ثانياً لم يتمكن أو لم يحاول أولئك الدفع السردي في الاتجاه المعاكس، أي أنهم سمحوا لتجريف الوعي واكتفوا بالانعزال. ثالثاً لا يبدو أن هناك فارق شاسع في ظاهرة وعقلية "المتفرج".

على الجانبين نختم بما أظن أنه أسوأ أثر، ولا أحمّل الشعب الأردني بشقيه كل الذنب لأن المسألة معقدة والأردن بأي حال ليس مصدر الفكر والتنظير، كما ذكرنا في مقالة الهجرة لقد حلّق المثقفون إلى حقول النفط ولم يساهموا بفهمٍ مميز من وجهة نظر من داخل الأردن. وهذه المرة سوف استثني نفسي.

أسوأ أثر هو أن الثورة لم تشكل أي نوع من الوعي السياسي، ولم تخرج بأي استنتاج فكري رفيع، أو مبادئ تذكر، أو تكتيكات، كل ما تركته صياغات باهتة ومواقف أخلاقية أقرب إلى الاستمناء منها إلى أي فلسفة أخلاقية. هذا يعني أن الشعب بات يعيد اكتشاف النار ويخترع العجال. قبل الربيع العربي كان موقف معاداة التدخل الأمريكي لا شك فيه لكن الرخصة للثوار تجاهلت كل ما حصل قبلها بمحض أعوام، قبل الربيع كانت فلسطين البوصلة لكن الربيع صنع بيئة تكافئ الفلسطيني على الطعن بقضيته، سواء الأقران بتأثيرهم على الأفراد أو مراكز الإعلام بتأثيرها على المثقفين. وبالطبع هذا يعني أيضاً أن نفس الشخصيات التي تصدرت المشاهد، سواء الحسابات التي يعلو عدد متابعيها أو "المثقفين" و"المفكرين" و"الباحثين"، التي اشتهرت في تلك الفترة لم تتمكن حتى لو وضعنا كل

أدمغتهم في رأس واحدٍ من كتابة أي فلسفة ثورية متقنة، لكن شهرتهم سمحت لهم بالاستمرار بقيادة الرأي اليوم وكل ما يعنيه ذلك من الاستمرار في تدهور الوعي وانحداره.